أسير الدائرة الوهمية

يسرى الأيوبي

وقف الدكتور ورد في غرفة العمليات شاخصا في الوجه الوديع الذي بـدا أمامه، وارتسم في عينيه قلق غامض، وتراجع قليلا وهو يعتذر آسفا أنـه لـيس بإمكانه أن يجري العملية، وخرج من الغرفة مسرعا منفعلا لايلوي علـى شـيء بينما وجم الجميع من معاونين وممرضات لتصرفه الشاذ، وراح بعـضهم يقلّـب النظر في بعض متسائلين. وأخذ معاونه الذي كان يرتب له أموره ويجـري كـل الفحوصات المسبقة الضرورية للمريض قبل إجراء العملية، ولا يتـرك للطبيـب التي تنامت شهرته وكثر زبائنه الاّ العمل الجراحي ذاته، يهوّن الأمر على السيدة الشابة الواجمة التي بدا في عينيها الكبيرتين الحيرة والأسى والإستفهام:

- "انه من أمهر الجراحين الذين يتعاقد معهم المستشفى، وقام بمثـل هـذه العملية عشرات المرات بنجاح تام فليس هناك من سبب يصرفه اليوم عن إجـراء مثلها رغم موافقته بعد اطلاعه على نتائج الفحوصات المسبقة الاّ..

وصمت الطبيب، فسألت الشابة بلهفة:

- "الاّ ماذا؟"

- "الاّ شذوذ في طبعه لايحاول له الاّ تفسيرا أغرب منه."

وتبسم أحد الأطباء المتمرنين وقال:

هل تذكر المشادة التي قامت بينه وبين الرئيس يوم أبرق اليه أحد الأمـراء وكان في حالة مؤلمة فأبى الذهاب، بينما يسافر ذلك اليوم الى بلد بعيد كـي ينفـذ صبيا معدما لامعرفة له به الاّ تلك الرسالة التي بعثت بها الأم تستنجده بها.. إنـه يتصرف كما يهوى أيتها السيدة وليس لأحد سلطان عليه..

وبدا الإهتمام في عيني الشابة ولكنها لم تقل شيئا. وقال طبيب آخـر أنـه يعتذر دائما بأنه آلة تسيره قدرة أعظم منه وليس له يد في أن يختار، ولا يزيـد على هذا شيئا.

وضحك الأطباء المتمرنون والممرضات ولكن السيدة لم تضحك. وتساءلت "أتراه ضحية تعرّف كاذب؟" وعاد المعاون الى القول:

- "انني لا أجد سببا لأعماله الاّ الكبرياء التي غدت عنده هوسا.. أذكر أننا عندما كنا نطلب العلم في أحدى الممالك الغربية أنه كان يأبى الاّ أن يفصل ثيابـه عند خياط الملك. واشترى يوما تمثالا لأميرة اسبانية بثمن غير معقول لا لـشيء الاّ لأنه واحد من اثنين يحتفظ بالآخر أحد المشاهير. فعندما يأبى إجـراء عمليـة لأمير من الأمراء ويرفض عطاياه لا يفعل هذا الاّ تحديا واستعلاء.. وليؤكد هـذه النزعة الحمقاء في صدره.. فقال الطبيب المتمرن:

- "ولكنه بهذا يسيء الى مهنة الطب التي تفرض على محترفيها أن يتحلوا بإنسانية مجردة من الأهواء. إنه مصاب بجنون العظمة ما في ذلك من شك." فقال المعاون:

- انه أسرّ لي يوما بقوله "ان هذا الثوب الأبيض لم يفصل لي، ولكن قـوة قاهرة ترغمني عليه كأنما أكفر به عن ذنوب الماضي.. لست أدري كيف يصيب نجاحا وتوفيقا في عمله رغم تبرمه واستهانته به.."

وقالت إحدى الممرضات:

- "لقد اكتشفت أنه لايقوم بإجراء أية عملية قبل أن يختلي بنفسه، ويـصلي ركعتين.."

ونهضت السيدة وخرجت من غرفة العمليات، ثم نـادت أحـد الممرضـين وطلبت منه أن يستأذن لها في الدخول عليه..

كان بادي الإعياء وتحت جفنيه نظرة حالمة إذ بادرته التحية، وقـال وهـو يتحاشى النظر اليها:

- "آسف أيتها السيدة لما سببته لك من إزعاج ولكنه أمر فوق طاقتي."

فتنفّست به ثم قالت برقة: "لابأس في التأجيل يوما أو يومين يـا دكتـور.. إنني سأعود خلال أسبوع فحدد لي موعدا آخر.."

- "كلاّ، كلاّ.. لست أعني هذا.. إنني لاأستطيع القيام بها أبدأ."

- "عفوا يا دكتور أنا لاأثق الاّ بك، ولا أريد غيرك يجري لي العملية.."

- "لاأستطيع!"

- "من غيرك يفعل يادكتور؟ انهما عيناي فهل أسلمهما ليد غير خبيرة؟"

- "هناك كثيرون غيري، يمكنني إعطاؤك أسماءهم."

- "لاأريد.. يجب أن يكون هناك تبادل ثقة بين المريض والطبيـب، وأنـا حساسة جدا لمثل هذه الأمور. إنهما عيناي ولا أريد أن ينطفئ فيهما النور ويسدل بينهما وبين الوجود الجميل حجاب كثيف. لم تشيح بوجهك عني؟ أنظر الي! كيف يمكنك أن تبدل أملي يأسا؟ ان الألم الذي ذقته جعل الموت حبيبا الى نفـسي، ألـم هائل يتحطم له رأسي.. لقد قطعت المسافات أعال نفسي باللحظة التي أضع فيهـا حدا لآلامي أفتضن عليّ به اليوم؟"

كانت حبات من العرق تتلألأ على جبينه فيمسحها بمنديله وكأنمـا يعـاني اضطرابا نفسيا عنيفا لم تدر له السيدة تعليلا رغم محاولتها أن تستشف ما يجـول في هذا الدماغ. وقال متلعثما وقد اصطبغ وجهه:

- "عفوا أيتها السيدة، أعلم أنك على حق، وددت لو أنني أملك مـن أمـري شيئا.. إنني لاأستحق أن تثقي بي كل هذه الثقـة لأنـك تزيـدين فـي إربـاكي، وإصراري على موقفي.."

- "وبمن أثق اذن؟ ليتك كنت تحاورني مثل هذه المحاورة في سـبيل أجـر مرتفع. إذن لكان لك ما تريد، ولكن حسبي أن أراك مرة لأعلم سخف إقناعك عن هذا الطريق."

- "عفوا أيتها السيدة، ولماذا تعتقدين أن على يديّ إنقاذك؟ ما يدريك أن يدي لاتضطرب فأودي بعينيك الجميلتين؟ ألست بشرا معرضا للخطأ؟"

فأجابت السيدة بهدوء:

- "ان يد الطبيب هي يد الأقدار، وإنني أقبل مصيري مهما كانت إرادتهـا بي.."

وتأوه الطبيب وهو يقول:

- "بربك إعفيني.. لست أدري أي شعور طـاغ يحـذرني مـن الإقـدام.. لاأستطيع تفسير الأمر لأنني أنا نفسي لاأعرف له تفسيرا.. ففي النفس الإنسانية ما هو أعمق من أي تحديد وتفسير.. لست أثق بنفسي وأنا أعاند هذه القوة التي تحرك يدي.. سأفشل، وسيقضي الفشل عليك وعليّ أنا الآخر لأنني لـن أزاول مهنتـي بعدها أبدا.. لن تدركي ما أعني فهذا أبعد من الإدراك العقلـي، ولا تحـاولي أن تكشفي الأغوار الغامضة في نفسي التي تفرض سلطانها علي.. ستخطر لك شتى الخواطر ولكن الحقيقة غيرها، ان كانت هناك حقيقة أسـتطيع أن أرسـم لنفـسي تقاطيعها".. وتململ في مكانه ثم أردف:

- "ان لساني ينزلق بكلام عجيب أفلا ترين؟ "

فأجابته وهي تسدد نظراتها اليه:

- "يبدو أنك حبيس دائرة وهمية."

واضطرب قليلا دون أن يدافع عن نفسه:

- "وهمية! ربما.. ولكنها واقعية بالنسبة الي."

- "هلاّ أوضحت!"

- "لاتطمعي في وضوح كامل فما بلغت هذه المرتبة مع نفسي.."

وبدا عليه الضيق، كأنما حفل من ذكريات أليمة تطبق عليه الخناق.. ومـا فات السيدة ما يعانيه، بل أثار استغرابها أمره، وراحت تقلّب فيه الفكر لعلّها تجـد حلاّ لما أشكل عليها من هذه النفس الغريبة الأطوار، ولكن أغلق عليها، فما كـان فيمن عرفت من يشبه هذا الرجل في تعقيده حتى تستعين بتجاربها في النفاذ اليـه. وساءلت نفسها "أتراه إفراط في الإنسجام أم تفكك في التفكير ما يكمن خلف هـذا الغموض.. وومضت عيناها وهي تنظر اليه بثبات.

- "دكتور، إنك لن تستطيع أن تتراجع بعـد ان وعـدت "عمـاد" بـإجراء العملية."

وتقلص وجهه وهو يستوعب الإسم كأنه يتهجّاه:

- "عمـ ـاد، عمـ ـاد!"

- "نعم زوجي، إنه لن يدرك اعتذاراتك بعد أن وعدته وعد رجل حر.."

وبان الإستياء في وجهه: "حقا وعدته، ولكن ما أدراني أنك أنت!"

- "إذن الأمر متعلق بي بشكل خاص! ستزيد الأمور سوءا بالنـسبة الـي، سيتوهّم زوجي أشياء غير واقعية بالنسبة الي.."

- "لا، لا.. هذا كثير! كيف يمكن أن ترسمي الأمر بهـذا الإتقـان أيتهـا الأقدار؟"

- "إنك تدهشني! لم لاأكون كعشرات غيري نالوا الشفاء على يديك؟"

وقالت لها عيناه وهزة رأسه وتنهده "آه لو تعلمـين لعـذرتني." وسـاءلته بإصرار من لايسمح أن يردّ له طلب وهي تستعد للذهاب:

- "غدا أليس كذلك؟ إنني سأكتب إن شئت تقريرا يعفيك من المسؤولية لـو حدث ما تتوقعه."

وكان إنسان غيره من يهزّ رأسه بالإيجاب.

- "لاداعي لذلك، سأتحمل مسؤوليتي كاملة."

وما كادت تنسحب من الغرفة حتى انهار على كرسيه وقد طفرت الـدموع من عينيه.. ولم يره أحد طوال اليوم.. وأبى تناول الطعام، وعند المساء كان يذرع غرفته وهو يحرق لفافة إثر لفافة وقد عبق الجو بضباب الدخان.. وخلالـه لمـع تمثال الأميرة الإسبانية في ركن الغرفة وكأنه يتحرك وينقلب الى سيدة ذات عينين وادعتين، وانتفض.. سيأتي الغد، ويا لهول الغـد! وسيـستغرب المـشرط هـذا الإرتعاش وقد عرف اليد الثابتة، وسيفسد كل شيء ويمتد الإلتهاب الـى الـرأس وستموت المرأة بين يديه.. أما كان يعرف التفاصيل منذ بدئها.. أما كان يتنبأ بكل كلمة تفوهت بها تلك السيدة؟ إنها تحسب نفسها غريبة جاءت اليه من بلـد بعيـد،

فأنّى لها أن تعلم أنها تعيش في دمه قبل هذا الوجود.. ها هـي ذاكرتـه لاتعـي ماضيه الاّ لتفسد حاضره، فأي شقاء أقسى مما يعانيه!.. أن تعـرف نفـسك يـد الإقدار العابثة، أن تكون آلة يُراد بك ولا تريد، أن تحيا حياتك مرة أخرى لتكفـر عن ماضيك، أن يتغلغل الماضي كما انحدر اليك في ذكرى حلم غـامض حينـا، دقيق حينا آخر في حاضرك ويستعبدك. ويح لنفسه المستفردة فـي مـشاعرها إذا أرادت تفسير ما لايفسر.

ورنّ صوتها في أذنه: "يبدو أنك حبيس دائرة وهميـة!" لا، لا مـا كـذب حدسه.. إنه لايشكّ أنه يملك حاسة ضمرت عند غيره من الناس حتـى تلاشـت فكيف يطمع أن تفهمه، وما لايدرك بالتجربة يعصى على الإحساس. سيهرب مـن هذا المكان قبل أن يرتكب جريمة في حق المرأة المسكينة التـي تـسلمه عينيهـا مطمئنة اطمئنان حمل بين يدي جزّاره.. ولكنه تمثل وجهها لحظـة وابتـسم "مـا أروع ثقتها بي وما أعظم شجاعتها!" وأحسّ بأيد خفية تعقله بقدرة سحرية لاإرادة فيها ولا محاكمة.

وأعياه التفكير فارتمى على سريره لم ينزع ثيابه أو حذاءه حين دخل معاونه ليحييه تحية المساء ويعرف برنامجه لليوم التالي، فقال له دون أن يتحـرك مـن مكانه:

- "هيئ غرفة العمليات للسيدة فتكون جاهزة في الثامنة صباحا."

وراح في غفلة حتى انبثق النهار، وسمع نقر الآذن على البـاب، فاعتـدل وتمطّى ثم أمره بالدخول. وقال الآذن:

- "السيدة وزوجها ينتظرا في غرفتك يا دكتور.."

وأجاب: "ها أنذا قادم، هل رتبتم كل شيء؟"

- "نعم." وعاوده الشعور بآليته رهيبا فحنق على الأقدار، ولكنه استسلم لها كارها يرقب النتائج الحتمية!

* * *

ولكن النتائج جاءت على عكس ما قدّر. ووقف واجما يستمع الى تهنئة زملائه مؤكدين له أنه ما كان يوما يعمل بمثل هذا الإستغراق والخفة والدقة والثبات.. ولكن الكآبة لم تفارقه.. فلم تنتهي الرواية.. وسيرى بعد أيام عندما تفك الأربطة فيما اذا كانت حاسته قد عبثت به..

نعم، لقد عبثت به.. فها هما العينان الوادعتان تبتسمان له شاكرتين أن أنقذهما.. وحق له في تلك اللحظة أن يمسح حبات العرق عن جبينه وهو ينظر في دهشة اليهما.. كيف حدث هذا؟ هل الأقدار متقلبة الإهواء تغير خططها حين تشاء؟

وقالت له عيناها وهي تبتسم: "ألا ترى أنك كنت حبيس دائرة وهمية يا دكتور؟"

وراحت عيناه تحتجان: "كلاّ، ان الأمر ليس بالسهولة التي تتصورين." إنه يحدق بها بنظرة استشفافية تربض في عينيه.. هل حدث خطأ في التعرف اليها؟ أتراها ليست هي التي ترافقه في طفولته وصباه وشبابه؟.. أليس التمثال الذي افتتن به تمثالها؟ اليست هي الروح التي هام بها في عالم غير هذا العالم فخدعته فأرادت الأقدار أن تقتص منها على يديه؟ أتراها غفرت أم أنها علمت أن قلبه المحب لايزال يهواها، فغاظها وهن إشفاقه فانسحبت غضبى؟

ودمدم لنفسه: "ياللسخرية! أنا من أتعذب اليوم تكفيرا عن أخطائك نحوي."

ونظر اليها فافترّ ثغرها عن بسمة بريئة: "إنك مدهش يا دكتور وإنني أهنئك."

ويسألها متجاهلا هذا الإطراء، وكأنما يبرر تحديقه بها:

- "ألم أرك من قبل أيتها السيدة؟"

فتجيبه بسذاجة: "لاأظن هذا.. فأنا لم أبرح بلدتي من قبل.."

* * *